

نونية أبي تمام في رثاء ولده

لأستاذ جليل

للدكتور محمد صبري أن يرى في مقالته «الحكم على الشعر
رأساليب النقد والتحليل» في الرسالة الفراء (٥٦١) أن نونية
أبي تمام في رثاء ولده^(١) قد قامت رائيته في محمد بن حميد الطوسي
التي يقول فيها :

ففي كان عذب الروح لا من غضاضة

ولكن كبرا أن يقال به كبر
والأستاذ عبد الرحمن شكرى أن يستعجب في إحدى مقالاته
في الرسالة كيف أن حبيباً - وهو في الرثاء ما هو - لم يجد
في النونية إجابة ابن الرومي في الدالية التي رثى بها ولده . غير
أن تلك القصيدة فائقة كانت أو مقاربة^(٢) ليست لأبي تمام وإن
جاءت في دواية المطبوع وفي المخطوط في دار الكتب المصرية
(عمرها الله) ؛ فإن أبا بكر الصولي يقول في مصنفه (كتاب
الأوراق) في سيرة (أبي محمد القاسم بن يوسف) : « وقال
- يعني القاسم هذا - يرثي ابنه أبا علي محمداً » وأورد القصيدة
بتمامها ، وروى بعدها دالية للقاسم في رثاء ابنه محمد وبين آخرين
له تجانسها كل المجانسة . والصولي هو المشغوف بحبيب . وهو
ساحب أخباره وجامع أشعاره فيستبعد أن يأخذ منه ليعطى غيره
كما يستبعد أن يضل في الرواية ، وهو الرواية العظيم . وما حدثتنا
(أخبار أبي تمام) له ولا (هبة الأيام) للبديعي ولا مؤلفات
كتبت سيرة حبيب أن له ابناً ، كفتته أبو علي ، فجع به فرثاه
بنى ، ولا أن له ابناً اسمه محمد درج وأخوة^(٣) لأبي تمام في عام
واحد فيكاهم بمنطوعة (أربعة أبيات فقط) ختامها :

تتابع في عام يبنى وإخوتي

فأصبحت إن لم يخلف الله مفرداً
ولا نعرف لحبيب ولداً إلا « تماماً » ذكره الأنباري في « نزهة
الألباء » في سيرة أبيه ، والصولي في كتابه « أخبار أبي تمام »

(١) مطلعها :

كان الذي خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعون

(٢) نبي ، مقارب : وسط

(٣) كان لحبيب أخ اسمه سهم ، ذكره البديعي في (هبة الأيام)
وكان قصده في « سر من رأى » المدينة ، ثم عاد إلى دمشق

وأورد له هذه الحكاية : « لما ولي محمد بن طاهر خراسان دخل
الناس لهنتته ، فكان فيهم تمام بن أبي تمام الطائي فأنشده
(وروى الصولي ثلاثة أبيات ركيكات) فاستضمت الجماعة
شعره ، وقالوا : يا بعد ما بينه وبين أبيه ! فقال محمد لمحمد الله
ابن إسحاق ، وكان يعرفه الناس وهو على أمره : قل لبعض
شعرائنا أحبه ، فغمز رجلاً في المجلس ، فأقبل على تمام فقال
وروي ثلاثة أبيات ثالثها :

فهاك إن شئت بها مدحة مثل الذي أعطيت أعطاك
فقال تمام : أعز الله الأمير ! إن الشعر بالشعر رياء ؛ فأجعل
بينهما رضخاً من دراهم حتى يحل لي ولك . فضحك محمد وقال :
إن لم يكن معه شعر أبيه فعه ظرف أبيه . أعطوه ثلاثة آلاف
درهم . فقال عبد الله بن إسحاق : ولقول أبيه في الأمير عبد الله
ابن طاهر :

أطلع الشمس نبي أن تؤم بنا فقلت : كلا ولكن مطلع الجود
ثلاثة آلاف أخرى ، قال : ويعطى ذلك »

وأما صاحب النونية التي وهبها الوراقون أو غير الوراقين
لغنى ، عنده قناطير - هو القاسم بن يوسف بن القاسم بن صبيح
القبطي ، وهو أخو أحمد بن يوسف وزير المأمون . قال الصولي :
« لما ولي أخاه القاسم خراج السواد ، فجاء فضلاً مما جباه غيره
في سائر أيام المأمون ، وكان أحمد بن يوسف إذا عرض على
المأمون النفقات قال : يا أحمد ، القاسم يجمع ، ونحن نفرق... »
وقد اشتهر القاسم بمدح البهائم (أعنى الحيوانات) ومراثيها .
قال المرزباني في (معجم الشعراء) : القاسم شاعر ، حسن
الاقتنان في القول ، وهو أشعر من أخيه أحمد وأكثر شعراً ،
وهو أرثي الناس للبهائم

وقال أبو الفرج في الأغاني في أخبار أخيه أحمد : شاعر
مليح الشعر ، وكان قد جمل وكده في مدح البهائم ومراثيها ،
فاستغرق أكثر شعره

وقال الصولي في كتاب الأوراق : القاسم أسن من أحمد ،
وأحسن شعراً منه ، وأنصح في شعره ، وأشعر في فنه الذي
أعجبه من مراثي البهائم - من جميع المحدثين حتى إنه لرأس فيه ،
متقدم جميع من نحاه ، وما ينبغي أن يسقط شيء من شعره ،
لأنه كله مختار ، وللناس فيه فائدة « ثم روى له طائفة كبيرة
من مراثيه في الجماعة... »